لغة الصحافة

للدكتور محمد عزيز الحبابي

لغات ولسان :

يتكون اللسان العربى من لغات ؛ من بينها لغة الصحافة . فكما لنا لغة خاصة بالفقه وأخرى بالتجارة ، وثالثة بالفلسفة ، ورابعة بالرياضيات ، . . لنا لغة الصحافيين .

لن يفصل هذا العرض لغة الصحافة عن المكونات الأخرى للسان العربى مادامت كلها تتعامل فيما بينها وتتخاصب . بيد أن للغة الصحافة فعلات أكثر نفوذا إلى وعى الشعوب وإلى ذاكرتها التاريخية والجمعية :

تدخل لغة الصحافة فى لغات الإعلام وهى اللغات الأولى من حيث التأثير المباشر على الأفراد وعلى الرأى العام ، ومن حيث الانتشا إنها أقوى من لغة المهد . فأفق هذه ضيق ؛ إذ ألفاظها وتعابيرها تنحصر فى المحسوسات البدائية ، يتعلمها الطفل ، عفويا وفطريا . وهناك لغة ثالثة يدركها كل من يشملهم التمدرس ، وعددهم بالعالم العربى ينمو ببطء ؛ لأن النمو الديمغرافى يعاكسه . ولغة المدرسة ليست ، وللأسف ؛ لغة جميع الأطفال ، بل تكتسب بجهود وتحصيل وحظوظ ، ويذهب نحوها الأطفال ؛ خلافا للغة الصحافة التى تأتى عند القارئ وتغزوه يوميا ، وفى كل أطوار سنه . إنها تهاجم بصره وتغريه . فهى على الأرصفة فى الطرق ، وفى المكتبات ، وفى قاعات الانتظار ، وفى مكان العمل ، وفى «الباص» والقطار والطائرة . لغة الصحافة تتابع المؤبجدين حيثما حلوا .

لغة الصحافة سيف ذو حدين معلق فوق الرقاب ، فكما تقول الحق ، نشرا ودفاعا ؛ تؤكد الباطل وتسانده وتذيعه ، وكما تنمى التواصل بين البشر لصالح التطور الحضارى والرقى العام ، تقطع أحيانا روابط التواصل بين الأفراد و الشعوب ، وتعكر صفو الوعى الفردى والجماعى . ولقد صدق من صرح بأن الصحافة هى السلطة الرابعة ؛ أى إنها تأتى بعد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وقبل السلطة الخامسة التى تتكون من تجمع الصحافة مع باقى السلطات فى يد واحدة احتكارا واستبدادا .

(*) ألقى فى الجلسة الخامسة لمؤتمر المجمع فى دورته التاسعة والأربعين (السبت ١٣ من جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٦ من فبراير سنة ١٩٨٣ م) .

من هنا خطورة الصحافة . إنها فى إمية دائمة : إما أن تستعمل لغة واضحة ودقيقة وصحيحة المعنى والمبنى ، (وإن الدقة والوضوح يستلزمان صدق الأخبار ، وحسن النية) ، وإما أن تستعمل لغة مهلهلة تقريبية ومبهمة ؛ ومن هنا الخلط بين المفاهيم والالتباس بين المعانى ، فيحصل سوء فهم وسوء تفاهم يستغلان استغلالات سلطوية وتخلفية ، فتسخر أفرادا وجماعات لصالح قلة من الهيآت الخاصة .

إذا كانت تلك الأدوار المزدوجة فى ما تقوم به الصحافة ، وكان نفوذها على ذلك المستوى من الخطر ، وجب التحرى عن لغات الصحافة . ولغة هنا لا تنحصر فى معرفة قواعد النحو والصرف والتراكيب ، بل إنها أيضا قدرة تتسرب للذهن وللضمير فتوجهها إيجابيا أو سلبيا .

(فاوست) يسكننا :

فاوست بطل أسطورة جرمانية قديمة ترمز — على ما يظهر — إلى أن الإنسان الذى يتطاول على الواقع — عوضا من أن يتكيف معه — لا بد من أن يتعرض لأخطار وتجارب قاسية . ولن يتغلب على وضعه إلا بنقد ذاتى جرىء يفتح به بصره على الواقع ولو كان مرا .

فموقف العرب من لسانهم موقفان : موقف عاطفى ، الحب فيه يعمى ويصم ، وموقف يعتمد الموضوعية ويخضع للواقع حلوه ومره .

من مميزات الكائن البشرى السوىّ الحرص على عدم ضياع هويته الأصلية . إن ضياع لسان قوم ، يكسر هيكل مجتمعهم ، إذ لا فرد ولا مجتمع دون لسان وتواصل . فالكائنات العاقلة تتساكن فيها قوى متضاربة ، وأى فرد لا يحافظ على الاعتدال بينها يخسر مقومات هيكله السيكلوجى المجتمعى ، فيكون مآله مآل (فاوست) .

وبدل أن يبقى رجلا يتمتع بالحياة ، طبيعيا ، ويكتسب من المعرفة ما تسمح به قدراته ، يتحمل المخاطر ، ويبذل الجهود التى تقتضيها المغامرة من أجل الجاه والمعرفة دون تهاون — تنازل (فاوست) عن روحه لـ (ميفيسطوفيليس) أمير الشياطين ، وبالمقابل التزم هذا الأخير بخدمة (فاوست) مدة أربع وعشرين سنة ، يوفر له ملذات فوق العادة ، ويمنحه أقصى ما يمكن من المعرفة . فأعرض (فاوست) عن اللجوء إلى اللسان القومى وإلى تعاون مع أبناء جنسه ، فأعرض وبات يتحدث بلغة (ميفيسطوفيليس) وحدها .

وما إن تراءى لـ (فاوست) أن مشروع التعاقد دخل حيز التنفيذ ، حتى انطلق وهو خلو من الروح الفردية والجماعية ، يعمل فى الكون كمن أصبح قادرا على فهم كل شىء والسيطرة على كل شىء . وسرعان ما أضحى متجبرا فى العالم :

ولم يمر إلا وقت قصير حتى اضطرب وجدانه أمام الفراغ والسأم . فجند مجموع

قواه للهدم والعنف متخبطا فى الكون ، غائبا عن المحيط الإنسانى وعن الواقع ، وهل من سبيل إلى الاندماج فى مجتمع وإدراك واقعه دون معرفة لسان ذلك المجتمع . فالروح النضوى المتسرب بين كثير من المثقفين العرب يتأتى من شعورهم بالاغتراب داخل أمتهم لأنهم يجهلون ، أو يتجاهلون لسانها إما لاعتباره ناقصا ومتجمدا ، وإما لانبهارهم بألسنة الغرب .

وبعد أن تخلى فاوست عن لسان قومه والتآلف معهم ، غدا يقتله الحنين إلى هويته الأصيلة ، وبدأ ضميره يستيقظ رويدا رويدا : لكن ، هيهات أن تنسجم طبيعتان فى شخص واحد كما جاء فى القرآن :

«ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» .

جن (فاوست) من البحث عن ذاته وعن قيم يزن بها بنود العقد الذى يربطه بـ(ميفيستوفيليس) بعد أن اقتنع بأن الصفقة خاسرة ، قسمة ضيزى .

كيف يقيم ويقوم الخسارة ، وقد استرخص من قبل تراثه ولسانه والروح والكرامة ؟

يلتقى (جوتيه) بفاوست فى القرن التاسع عشر ، ويأخذ بيده ليشخصه من جديد . استعاد فاوست كل أبعاده وغدا لا يستوحى سلطة الفكر والمعرفة إلا من إنسانيته ، وبلغة الأم ، اللغة المتجذرة فى كيان شخصه وفى أعماق ذاكرته ، إذاك وعى فاوست وضعه المزيّف والمزيِّف ، فدخل معركة ضد من اغتصب منه الروح ، فكانت عاقبة (ميفيستوفيليس) الخسران المبين . أما فاوست الإنسان فقد صار يحقق ما يرنو إليه من توق للعمل ، إلى أن أصبحت حركاته قصدية فى مغامرات إنسانية ؛ لأنه التزم بتحقيق مثل عليا ، كما أدركها بوجدانه ووعيه وعقله وحدسه ، على ضوء قيم شمولية مشتركة أخذها من الثدى والمهد ، وعن الأم والأب والإخوة ورفاق الطفولة فى البيت والمدرسة والشارع .

لا نهضة بلا لسان متطور :

فمتى يستعيد فاوست العربى العصرى روحه لينحى عن الطريق كل آثار ميفيستوفيليس ، ويجعل قوتى : الدفع ورد الدفع متكاملتين ؟ .

متى سنستأنف ، متعاونين ، المسيرة نحو آفاق جديدة تضمن الكرامة للجميع ، وتصحح الاتجاهات الاقتصادية والمعنوية معا ؟

تـود شعوبنا بكل أحشائها أن تتجاوز القطيعة والانشقاق الصراعى بين مسؤوليها نحو الانتصار على التخلف . ولا كفاح ناجع دون مناخ ثقافى تتفتح فيه الشخصية الفردية وتنتعش فيه الذاكرة الجماعية عن طريق اللسان القومى .

وصفت الصحافة بأنها « صلاة يومية » أى أنها بعد أن بدأت قليلة الانتشار واختيارية الوجود فى حياة الأفراد والجماعات ، أمست لازمة وشبه مقدسة ، وها هى اليوم

تغزو الآفاق وتتابع الناس ، حتى من لا يحسن القراءة منهم ، هجوما مسموعا ومرئيا بل تتسرب حتى أسرّة الناس ، مما جعل لغتها أقوى انتشارا وتأثيرا فى الأعماق .

فالسؤال إذن : هل للصحافة العربية على اختلاف أنواعها ، لغات فى مستوى الأدوار المنوطة بها ؟

بصفة إجمالية ، إن الواقع المعيش يجيب بالنفى . ففى الوقت الذى تفككت فيه كل عرواتنا، وباتت « الأمة» العربية بلا جامع مشترك (لا سوق اقتصادية مشتركة ، ولا توحيد فى برامج التعليم ، ولا أحلاف دفاعية ، ولا نظرة منسقة فى السياسة ، والديبلوماسية ، ولا . . . . ولا . . . وألف لا ولا . . . .) كل ما تبقى لنا هو اللسان العربى لنتواصل به، رغم الاختلافات والتنافى ، وهما يتناوبان الظهور والاختفاء ، فوق ساحة الدول العربية ، مع مر السنوات .

نعم ، باللسان العربى يقع اللقاء والافتراق أى به نتصل ، والضمير فى « نتصل » لا يعود إلا على حاملى الشهادات وعلى المؤبجدين عموما ، أما جمهرة الشعبيين العرب ، فلا يحسنون قراءة ولا كتابة . إن الدارجات تغرقهم فى قطيعة مع لسان تراثهم، ويفصل بعضهم عن بعض ، كلما انتقلوا من مكان عاميتهم إلى مكان عامية أخرى. هكذا العاميات والدارجات تغرقنا فى اللاتفاهم بيننا .

فماذا يستفيد المصرى ، الأمى والمثقف على السواء، من أخيه المغربى عندما يقول له : « الخوهد لوليا طلعتلى الزعْف » ؟ وماذا يستفيد المغربى، كيفما كان مستواه، عندما يسمع شقيقه ابن الكنانة يصرح : « أنا عايز أُوَد زَىْ ده » ؟

إنها شقة تزداد مع الأيام ومع المسرح ومع السينما، ولغة الأغانى ، عمقا وتعقيدا . فقراءة الصحف والمجلات ميزة من امتيازات نخبة المتعلمين .

والقراء نوعان : نوع يتهجى العناوين ويتفرج على الصور ، ونوع يستوعب مايقرأ . والقراءة الحق لاتكتفى بالتأبجد، بل لا بد من تعلم جد طويل الأمد ؛ لأن اللسان العربى ليس سهلا كما يزعم البعض. إنه عسير جدا لعلتين : أولاهما أنه ليس لسان الخطابات اليومية فى السوق والبيت . . . ثانيتهما أنه يجند البصر على حساب السمع . إن العربية، حتى المكتوبة، لا تخلو من صعاب لا يتغلب عليها إلا أفذاذ قلائل .

على رأس لائحة تلك الصعوبات : أن الكتابة العربية معوقة لفقدان الحركات على الحروف ، وكل جهاز أو جسد أصابه عطب ما فى حركاته ، بات مشلولا .

قد ننتصر — إن قليلا وإن كثيرا — على القطيعة وعلى صعوبة القراءة إذا جندنا الإذاعة والتلفزة ، وكذلك السينما والمسرح والأغنية

فى خدمة اللسان العربى ؛ أى الجامع المشترك بيننا ؛ لأنها أدوات فعالة لترسيخ الجمل السليمة والألفاظ الصحيحة فى الذاكرة والنطق المستقيم فى الحديث .

فهل سيصح العزم على القيام بذلك ؟

من الجواب ستكون بداية الإصلاح الأشمل ، أو نهاية المحاولات المتفائلة، فمن الصحفيين من يضعوا مصطلحات وعبارات وترجمات تفرض نفسها بفضل التكرار فيتعود عليها البصر أو السمع فتستقر بالذاكرة. وهذا ناموس طبيعى ، لأن ما يجد قلبا خاليا يتمكن . والواقع أن بعض ما يوضع ارتجالا (الخبر الصحافى لا ينتظر) أو بعد بحث وتأمل ، يكون مقبولا لسلاسة بنيانه واشتقاقه ، كما أن بعض ما يقترحه صحفيون آخرون لا يقبله الذوق ، أو يكون غير دقيق .

كذلك ، يرجع الفضل إلى الصحافة فى ترويج ألفاظ عربية كانت مهجورة، فأعادوا لها الحياة .

نقطة ثالثة . حينما يقع اكتشاف أو اختراع ، سرعان ما يسميه الصحفيون قبل المجامع والجامعات والمعاهد العليا . وعندما تضع إحدى هذه الهيآت أسماء لتلك الاكتشافات ، تكون الأسماء التى أطلقها الصحفيون قد استقرت .

فهل من حل لهذا الوضع ؟

أتدخل المجامع والهيئآت العلمية الأخرى فى حرب مع الصحافة ؟

تلك سلسلة من التساؤلات وليست الوحيدة على كل حال .

ومهما يكن من اجتهادات ، فإن الوضع الحالى غير مشجع . استمعوا إلى إذاعة الرباط ، مثلا ، فكل الأغانى بالعامية ، وأحيانا بكلمات يمجها الذوق العامى نفسه مثلا : « عينيك كيف الزليط » (زليط les allumettes الفرنسية) . طبعا ، قد تصادفون ، عرضا أغنية بشعر عربى ، لكن ذلك من النوادر ، والنادر لا حكم عليه أو به . بنفس الإذاعة المسرحيات بالدارجة ، وأرقاها بالعامية .

تتبعوا بإذاعة القاهرة مباراة لكرة القدم بين الزمالك والأهلى، فتسمعون خليطا عربيا إنجليزيا ، لا هو هذا اللسان ولا هو ذاك: أفسايد (عوضا عن الشرود أو التسلل) و كورنر (عوضا عن ركنية أو جانبية) وبنالتى (فى مكان ضربة جزاء) .

ولنتصفح برامج المسرحيات المعروضة حاليا فى مسارح العالم العربى جميعه ، وللشرائط السينمائية فى قاعات العروض العربية كلها، سنجد أن جلها أجنبى ، والباقى بالعاميات باستثناء قلة القليل :

فإلى أين نسير ؟

إن القضية ليست فى تصحيح وزن صرفى أو اختيار لفظ أفصح من آخر ، أو تأكيد

قاعدة نحـــوية . إن القضية مصيرية ، وبالتالى تستوجب تغيير بنيان أجهزة الإعلام والتثقيف ، وغربلة الأطر المسؤولة . استبدال فنانين وصحفيين بآخرين يفرضهم مستواهم الفنى واللغوى ، ويعون مسؤوليتهم حق الوعى .

لقد جلس البعض على كراسى فى الحكم أو الإدارة ، واستلذوا السكوت و«مَاعْلِيش» ويتجنبون كل رجوع إلى ضمائرهم ليصلحوا ما حولهم . فمنهم من باع ضميره ، كما فعل (فاوست) مقابل الهدوء ، حتى لا يزحزحوا عن كراسيهم ، ومنهم أنصاف مثقفين ، لاهم يعملون على إصلاح مابهم من نقصان ، ولا هم تحركوا ؛ لأن الحركة تفضحهم . الكل يتآمر على العربية وعلى ما حملت من تراث إنسانى وما يمكنها أن تساهم به لصالح الإنسانية .

فكأن الجميع ملتزم بالسكوت نحـــو (ميفيستوفيليس) أمير الشياطين الذى اشترى من (فاوست) روحه .

ننتقل الآن إلى وجه ثان من المشكل: إنه استلاب التخاطب اليومى عند كثير من المثقفين العرب الذين انبهروا بالغرب فتغربوا لغويا وسلوكيا . تلك غربة واغتراب وتمغرب . إنه عائق ليس أقل خطورة من العوائق السابقة . بل على العكس ، إنه انتحار لشخصية الأمة بواسطة انتحار كرامة أطرها العليا والوسطى ، وذوبان الآمال المعلقة عليها .

لا مجال للخلق العفوى فى عالم الفكر أو المعانى والمثل ، كما هو محال فى عالم المادة . لا بد من مواد أولية ومن فكر ليفهمها قبل أن يتصرف فيها . ومن المسلم به أنه لا فهم ولا فعل إلا عن طريق اللسان . فبالألفاظ تسمى الأشياء ، وتتحول مفاهيم ندخل بها فى حوار مع ما نريد إدراكه ، فيبدأ الاكتشاف والتصرف فى الموضـــوعات المدركة . لذلك ، لن تلعب أية لغة أدوارها إذا تجمدت أو جمدت .

لقد أتى دهر على لساننا كان خلاقا مبدعا كشافا ، ثم أغلق باب الاجتهاد فى الفقه ، وجف معين علم الكلام ، وبالتالى تجمدت العربية . اجتهد الأجـــداد عندما ترجموا ، واجتهدوا عندما فـــكروا ، بل حتى عندما سامروا فى ليالى المرح والدعابة ، ثم أصابتهم الأمواج من كل مكان ، وجاءتهم ريح عاصف ، فكان ما كان .

إن الذبذبة والحيرة ، كالوثوقية ، عرقلة للفكر ، تمنعـــانه من مرونة التصرف فى الواقع . فالوثوقية المادية ، والوثوقية المثالية ، تعارضان توحيد الرؤية والالتحام بالواقع . إنهما حاجزان فى طريق بناء المستقبل ، بل حتى فى سيرورة تصوره ؛ لأن التفكير مضمونا خارجا عنه يتجاوزه . فمعيار اليقين ليس فى الفكر ، بل فى علاقة الفكر بالحياة وتطابقه مع ما جرياتها . وما جريات حياة اليـــوم هى السرعة والتفتح ، فاللسان

العربى معرض لتحولات العصر ، ومن يحاولون تجسيده يقتلونه .

ذالك هو معنى «الإنسان حيوان سياسى ، مدنى بالطبع» ؛ على اعتبار أن السياسة هى التى تُسيِّر المجتمع وتنظِّم العلاقة بين الأفراد. فلا قوانين للفكر توجهه وتجعلنا نخضع لها قبل أن نخضعها لنا .

الفكر أفقى ، وإن ظنه البعض عموديا، بيد أن أفقيته محدودة ، مكانيا وزمانيا . إنه «آلة» تاريخيه وتأريخيه . ومن هنا تصدرعن الفكر دلالات حضارية . فعمليات الفكر قصدية ، غائية . لذلك ، كلما أردنا تحليل فعل فكرى ، وجب أن يقوم التحليل بلسان واضح ودقيق ومتحرك :

إن ماهية الفكر ومضمونه يتلازمان كما أن أى فعل فكرى، فى فرديته، لاينفصل عن فعل الفكر بصفته موضوعا . فالشعور حضور الذات مباشرة فى ومع محيطها . ومن وظائف الفكر المتميزة أن يعين الشعور ليرتفع على مستوى الإحساس إلى الوعى، ولينتقل بالوعى إلى التأمل فى علاقات الذات بمحيطها. إن التأمل شرط سابق على أى تخطيط للوسائل الكفيلة بإصلاح خلل علاقات الذوات بمحيطها وبالتاريخ .

ليس المحيط المجتمعى فضاء جغرافيا وحسب ، بل ثقافة تتجلى فى السلوك والعادات والأعراف ، المكتوب منها وغير المكتوب ، كما أن التاريخ ليس أحداثاً وآثاراً وحسب ، بل إنه أيضا ، ذاكرة جماعية تسكن اللسان القومى ، بكل لغاته وتتحرك بحسب ديناميته . فهو الذى يسقى الفكر والحدس والإحساس ، من الداخل ومن الخارج ، فمثل من يحاول إيقاف هذا الرافد أو الآخر (برفض الاجتهاد والتفتح) كمثل من يحاول إيقاف الحياة فى تدفقها.

محمد عزيز الجبالى
عضو المجمع المراسل من المغرب